

Aesthetics of Algerian Folk Poetry



Received: 14/05/2023; Accepted: 18/07/2023

*اسهام سديرة

I المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار/ قسنطينة (الجزائر)

جماليات الشعر الشعبي الجزائري

الكلمات المفتاحية:

الشعر الشعبي ؛
الجمالية ؛
المفهوم ؛
النشأة ؛
الأنواع ؛
الأغراض .

ملخص

خُظي الشعر الشعبي مؤخرا باهتمام الدارسين والباحثين والجماهير الشعبية، نظرا لشمولية مواضيعه السياسية والدينية والاجتماعية والتاريخية والوطنية... وغيرها، وهو أحد أشكال التعبير في الأدب الشعبي لا يقل اهتماما عن القصة الشعبية والأغاني الشعبية وأدب الملاحم، بل أنه بات ضرورة حتمية لدى المجتمعات الشعبية باعتباره مرآة عاكسة لها، يعبر عن آمالهم وآلامهم، بطريقة شفاهية يتذوقه العام والخاص ويتداولونه فيما بينهم، لأنه يعبر عن وجدانهم ويمثل تفكيرهم، ويعكس مستواهم الحضاري .

تسلط الضوء هذه الورقة البحثية على الشعر الشعبي الجزائري، وأهميته والوقوف عند مضامينه وقيمه وفنيته وجماليته وأدبيته، وتاريخه وجماليته أغراضه المتنوعة في الوقت الذي لازال النص الشعبي عموما بحاجة إلى الدراسة والتحليل ونفض غبار التهميش والنسيان، فجاء الموضوع بعنوان جماليات الشعر الشعبي الجزائري.

Abstract

Popular poetry has recently received the attention of scholars, researchers, and the popular masses, due to the comprehensiveness of its political, religious, social, historical, and patriotic issues...etc. A mirror reflecting it, expressing their hopes and pains, in an oral way that the public and the private taste and circulate among themselves, because it expresses their feelings and represents their thinking, and reflects their level of civilization.

This research paper sheds light on Algerian folk poetry, its importance, and standing at its contents, value, art, aesthetics, literature, history, and the beauty of its various purposes at a time when the popular text in general still needs study, analysis, and dusting off marginalization and oblivion.

Keywords:

popular poetry ;
aesthetic ;
concept ;
origin ;
types ;
purposes.

* Corresponding author, e-mail: sedirasetif@yahoo.com

Doi:

مقدمة

يُعد الشعر الشعبي نمطا من أنماط التعبير الشعبي أدّى وظيفة خاصّة في حياة الشعب، وتكمن أهميته في التفاعل مع الواقع المعيشي والتعبير عن حاجات الإنسان اليومية وعلاقتها بمتغيرات تفرضها العادات والتقاليد والأعراف والقيم. وإذا جئنا إلى الدراسات التي تناولت هذا المصطلح "الشعر الشعبي" أو "القصيد الشعبية"، فكّلها توازي بين مصطلح "القصيد الشعرية الشعبية، الرّجل، الملحون «ثم فرّع أصحابها العنوان الأساسي، زجلا كان أو ملحوناً أو شعبيّاً، إلى أنواع أملتّها طبيعة النص الشعري نفسه، فقالوا منه ما هو مبيت ومنه ما هو موشّح ومنه ما هو قصيد»¹، وطرح هذا الأمر العديد من التساؤلات حول تحديد أصل التسمية، وسنبداً بمصطلح الملحون.

1- ماهية الشعر الشعبي وتسمياته:

تداول هذا المصطلح "الملحون" من طرف العديد من الدّارسين، فأطلقوا مصطلح "الشعر الملحون" على كل القصائد الشعبية، ومنهم "عبد الله الرّكبي" الذي أثر هذا المصطلح على غيره من المصطلحات الأخرى، كالشعبي والعامي، يقول: «لما كان الشعر الملحون في معظمه تقليداً للقصيد المّعربة، فإنّ الفرق بينه، وبينها في الإعراب، فهو إذاً من لَحْنٍ يَلْحَنُ في الكلام، إذا لم يراعِ الإعراب والقواعد اللغوية المعروفة»²، وقد وضّح "الرّكبي" أن هذه المفردات الملحونة هي عربية خالصة في معناها.

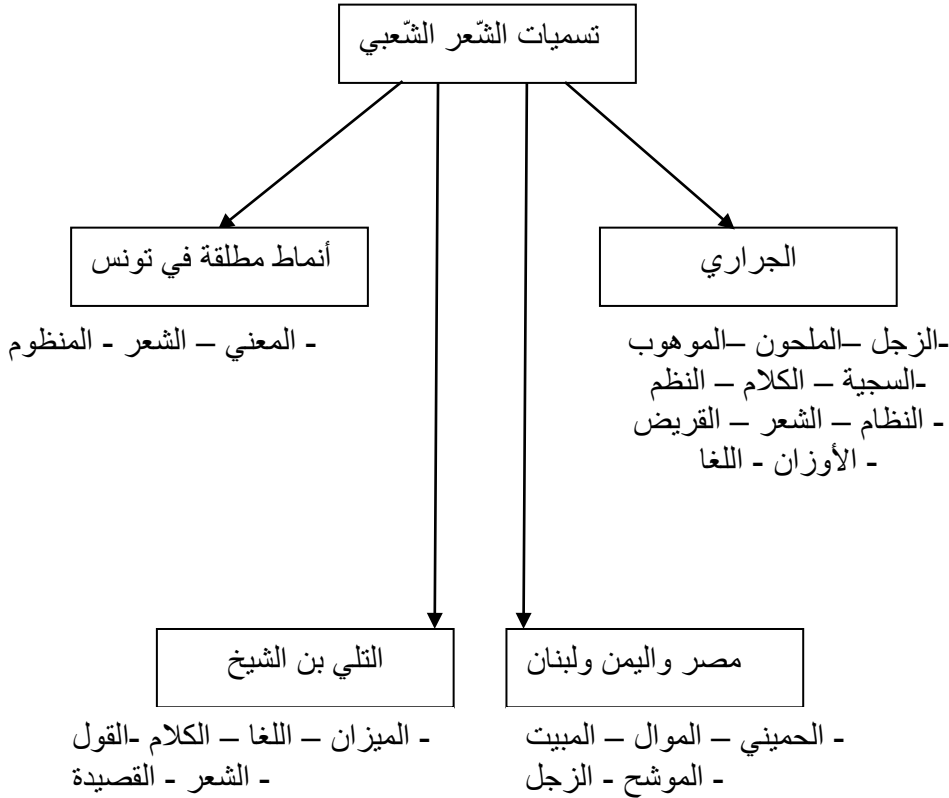
كما أطلق "المرزوقي" هذه التسمية انطلاقاً من خلوّ هذا الشعر من القواعد النحوية والصّرفية، وعدم احترامها أثناء النطق به، يقول: «إنّ الشعر الملحون الذي نريد أن نتحدث عنه اليوم فهو أهم من الشعر الشعبي، إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكاً له، أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه، أي أنّه نطق بكلام عامّي أو بلغة عامية غير معرّبة»³.

كما أورد، "محمد عبده غانم" مفهوماً آخر للشعر الملحون وربطه بنوع آخر من الشعر وهو "الشعر الحميني" يقول: «تستعمل كلمة ملحون تابعة لكلمة "حميني" أو بدلاً منها، للدلالة على الشعر الذي لا يلتزم بقواعد اللّغة الفصحى»⁴. والأرجح أنّ الشعر الملحون كنمط من التعبير انتشر في البيئة العربية خصوصاً في البيئة الصحراوية، وهو المصاحب لشبوع اللحن، وقد ارتبط بالدخول العثماني والاحتلال الفرنسي قطعاً، يتميز بخصائص عدة نذكر منها:

- يكون معروف القائل حيث غالباً ما يُصاغ بطريقة فنية في آخر القصيدة.
- ينتقل من حدّ القلة إلى حدّ الكثرة.
- أقرب إلى الفصحى.
- غنائي مرتبط بالموسيقى.
- غالباً ما ينظم على مثال الموشحات والأزجال.
- شفاهي، عفوي، يتناول مواضيع شتى.
- مجرّد من القياس النحوي والصرفي مع احتمال الخضوع للقياس العروضي.

أمّا مصطلح "الرّجل" فهو الآخر تداوله الكثير من الباحثين، ويُعد "عباس الجراري" من بين الدّارسين الذين اقترحوا هذا المصطلح، في معرض حديثه عن اختيار الاسم الذي يناسب الشعر الشعبي «مبرراً اقتراحه هذا بعوامل قومية في طبيعتها توحيد المصطلح في كل الأقطار العربية، مادام أغلب هذه الأقطار يسمى هذا النوع من الشعر بالرّجل»⁵.

لكن الذي يُلَفّت نظرنا إلى هذه الأقطار العربية وبالأخص مصر واليمن ولبنان، فإنّها تتداول مسمّيات كثيرة منها: "الرّجل" و"الحميني" و"الموال"، و"المبيت" و"الموشح"... وهي تختلف من مكان لآخر⁶. أمّا "التلي بن الشيخ"، فإنّه يرى في صفة "الشعبية" أحق بالإطلاق على هذا النوع من الشعر من صفة الملحون والرّجل لأنّ صفة الشعبية تنصرف إلى ما له عراقية وقدم، وأنسب التسميات لحد الآن والتي تُتداول عند أغلب الدّارسين ذلك أن تسمية "الشعر الشعبي" تنزل إلى طبقات الشعب عامة، احتضنت موضوعاتهم وأفراحهم، وأحزانهم، وصوّرت أحلامهم وطموحاتهم.



2- تاريخ القصيدة الشعبية:

مثلما كانت الصعوبة في توحيد مصطلح واحد جامع ومانع، للشعر الشعبي، كانت الصعوبة كذلك في تحديد أصل الشعر الشعبي الجزائري وحتى في شمال إفريقيا، فقد تضاربت آراء النقاد والدارسين فمن قائل بوجود القصيدة الشعبية في الجزائر قبل الفتح الإسلامي، ومن جازم بوجودها قبل الزحف الهلالي على الجزائر⁷. واستقرت تلك النصوص الشعرية في ضمير الجماعة، وظلت تنمو في ظروف اجتماعية وثقافية وسياسية حتى جاءت الثورة التحريرية، فأبرزتها في حُلّة جديدة أعادت لها فتوّها ونظارتها لتتماشى مع الثقافة الجديدة والعصر الجديد، وسوف نعرض أهم الآراء:

القول بأن قرص الشعر الشعبي الذي كان موجودا قبل القرن الخامس الهجري وهذا يحيل إلى أن الشعر تعبير ذاتي يرتبط بأغراض حاربها الإسلام؛ لأنها تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية وتتعارض مع الدعوة إلى تكوين أمة موحدة، ومن تلك الأغراض الشعرية نجد -الفخر- بالأنساب والمرأة والتغزل بها أضف إلى ذلك تمجيد الروح القبلية. وهاته الأغراض هي التي تتيح للشاعر أن يعبر عن وجدانه وعواطفه بالطريقة التي يريدها ولو على حساب الأخلاق والمبادئ التي تسيء إلى العلاقات الاجتماعية.

وهناك احتمال آخر مفاده أن الشاعر الشعبي كان أميا ولا يحسن تدوين ما ينظمه ولما هجر الشعراء الشعبيون نظم الشعر الشعبي انقرضت نصوصهم.

أما الرأي الآخر الذي فنّد هذه الآراء، فهو الذي يرى بأن القصيدة الشعبية قد ظهرت مع الفتح الإسلامي ثم انتشرت بقوة بعد مجيء الهلاليين إلى الجزائر «والذين حملوا معهم لهجاتهم المتعددة فتوغلوا في الأوساط الشعبية وساهموا في تعريب الجزائر بصورة جلية»⁸، بدليل أنّ النصوص الإسلامية في مضمونها وعربية في لغتها.

أمّا "التلي بن الشيخ" فقد حاول أن يوفق بين هذه الآراء ويستنتج أن الشعر الشعبي الجزائري «يحمل في أعطافه روح الطابع الإسلامي وهو ما يرجّح القول بأن ما وصلنا من الشعر الشعبي بعد الفتح يعني أنّ سكان الجزائر لم ينظموا الشعر قبل دخول الإسلام ذلك أن وجود شعب سابق للإسلام له لغته وعاداته وتقاليده، يتطلب بالضرورة أن يكون لهذا الشعب شعر يعبر عن وجدانه وحاجاته»⁹.

إنّ جميع هذه الآراء التي ركّزت على تاريخ القصيدة الشعبية، وعلى أخصب عصر عرفته، وفوق كل ذلك كانت الآراء متضاربة ومتفرقة ولا يجمعها رأي واحد، كانت كلّها تحوم حول الشعر الشعبي عموماً. ولكن لو تعلّق الأمر بنوع محدّد من الشعر كأن يكون الملاحون مثلاً، فهذا الأخير يكاد يكون معروف القائل بدليل أن الشاعر يُخلّد اسمه في نهاية القصيدة لكان من السهل تحديد أصل ومنبت النص الشعري في حد ذاته، انطلاقاً من أصل الشاعر وبيئته.

3- أنواع الشعر الشعبي:

لا يختلف الشعر الشعبي عن الفصحى من حيث مضامينه، وموضوعاته وفي بعض الأحيان حتى على مستوى شكله، فكلاهما يستهدفان دراسة جزء هام من التراث القومي. وهذا ما يدعونا إلى التأكيد بأن دراسة الشعر الشعبي متممة للدراسات الأدبية في الشعر العربي، والحديث عن أنواع الشعر يقودنا إلى تحديد هذه الأنواع من حيث الشكل والمضمون وعلى مستوى الأغراض التي يتناولها الشعر الشعبي الجزائري كذلك.

أ- على مستوى الشكل:

لعب الشعر الشعبي الجزائري دورًا بارزًا في شتى مجالات الحياة، وقد واكب الحروب والمعارك التي خاضتها الجزائر، فكان النص الشعري الحربي هو السائد من بين النصوص الأخرى، وقد عبّر الشاعر الشعبي عن هذا الموضوع بنظمه لقصائد شعرية تتميز بالاختزال والاختصار، حيث كان الشاعر يختزل أبياته إلى مقطوعات شعرية، اصطلاح على تسميتها بالرباعيات، بالإضافة إلى القصيدة، وما بينهما (الرباعيات والقصيدة). كل هذه الأنواع هي ما ميّزت الشعر الشعبي على مستوى الشكل. وتعد الكثير من النماذج الشعرية، محتواه في شكلها على الرباعيات، وسأختار نموذجًا قديمًا من شعرنا الشعبي الجزائري للشاعر "محمد الصغير بن قيطون" في قصيدته المشهورة "حيزية":

عزوني يا ملاح	في راييس البنات
سكنت تحت اللحد	ناري مقديا
يا أخي أنا ضرير	بيّا ما بيّا
قلبي سافر مع	الضّامر حيزيا

ويُسمى هذا النوع كذلك بـ: "المربوع أو الرباعية"؛ لأن كل مقطع فيها يحتوي على أربعة أشطار قصيرة، يلتزم فيها الشاعر بقافية واحدة وحرف روي واحد في الشطر الرابع وينوّع من قوافي الأشطار الثلاثة التي تتشابه حد التوحيد في الرباعية الواحدة، وبالإضافة إلى المقطوعات نجد كذلك القصائد التي تتميز بمعروفة قائلها، وانتشارها المحدود على عكس الرباعيات التي عادة ما تكون مجهولة القائل الأمر الذي جعلها ملك للجماعة الشعبية يحفظها العامة من الناس. إن القصيدة لا تُحفظ بسهولة نظرًا لأغراضها المتعددة في نص واحد، وغرابة بعض ألفاظها الأمر الذي جعلها سجية أصحابها (المثال الدافق والصور الشعرية).

ونذكر قصيدة للشاعر "عامر بن أم هاني" يقول فيها:

يا ولفي وش بيبك ماهمك تعبي	والقلب ديتة في جنبك سافر
اهجريتني رايحة لحت حب	وركبني وسواس من هم حابر
ازهيتني بفراقنا خافي ربي	ربما عزوك ناس المناكر

يقول كذلك الشاعر: "البشير قذيفة"¹⁰

ارماتني بسهامها طفلة سمره	تودر عقلي حين ربي راد عليّا
لا طالب لا طبيب ينفع ذي المرة	والجرح إلا طال واش دأوي فيه
يا ربي بجاه طه والعشرة	بجاه المحراب والي طافوا بيه
يا ربي بجاه فاطمة الزهرة	وبجاه التي قام ليلو وصلى فيه
اشفيني يا خالق جرحي يبرى	يا عالم بهوم قلبي ولي فيه
ننساها ونعود كي أول مرة	هم الوحدة والسهر ما طلقت عليه

كما مزج بعض الشعراء في نصوصهم الشعرية بين الرباعيات والقصيد كقول الشاعر "أحمد فضيلي" في قصيدة بعنوان: "نداء ونصح للمغتربين"¹¹

يا مهاجر نوصيك	من هم الغربة بركيك
أصبر والصبر جميل	النهار مع الليل
لا تنعش هواك	اتفكر واش وراك
إلي منهم مشيت	وامعاهم راك تربيت
ابلاك تترجى فيك	تبني فيها واتقسم
رب هو الوكيل	توب ليه إيلا تندم
والديك أو قرباك	أهل الفضل الأعظم
كنت ضاوي في البيت	أفراقك عنهم ظلم

ب- على المستوى المضمون:

تنقسم القصيدة الشعبية وفقاً لمضامينها إلى قسمين القصيدة البدوية والقصيدة الحضرية، أمّا النص البدوي فيتميّز بألفاظه الجزلة وترابط كلماته وسلاسة معانيه، وهو قديم تسرّب إلى الشعراء الشعبيين في المغرب الأوسط من شعراء بني هلال، تتميز كلماته بالقوة التي تتبع من البادية وتتميز بالخشونة تدور مواضيعه حول الوطن والأرض، وتنادي بالقيم الأخلاقية الأصلية، يستعين الشاعر بصور من الطبيعة يراها في حياته اليومية، فيلتقطها ويكسبها جمالاً فنياً صادقاً.

يقول الشاعر "عبد القادر العطوي":

اتوحّشت أولاد نايل ذا الخضرة	الله لا ترأس نغداننا وياه
نسري على لفجار وانشق البكرة	نتوكل عن خالقي عظيم الجاه
البر لي فيه تطياب العشرة	توحشنا ذوك المراسم يا حسراه
ماحلاها قعدات في البيت الحمراء	نيك القعدة تزيد للخاطر تنزاه
فلجة مرقومين رقبة من ظهره	والكانون رواق من قلبه غطاه
من النعجة صوف والمعزة شعرة	تتحزم اخودات لشغلها تهواه
بدات تسلسل عولت خطفت بكثرة	لخرة تقردش طالبة عونو ورضاه
هذي تغزل ذي تقاني تتحذرى	والمغزل مقطوع من دفلة ممضاه
باه تسدي يلزمك خيط النيرة	هات الميشع ما يكون فليح بلاه
وفرشات مزركشة حمرا خضرا	حنابل ومخاد وزرابي كيفاه
أهل البادية أهل غيرة وازناد مافيهم عرة	يا سعد اللي دارهم في الجار حذاه

أمّا النص الحضري فيتميّز برقة ألفاظه وليونتها، يتخلله النثر بين عباراته وألفاظه، استغل فيه الشاعر الشعبي لغة العصرنة والتكنولوجيا، فأصبحت القصيدة الشعبية بانزياح على مستوى اللغة والألفاظ جزءاً معاشية الشاعر للحياة العصرية ومغرياتها، فأصبح ما يبوح به من كلام يتكئ في معظمه على مفردات متداولة في عصرنا هذا: يقول الشاعر "عبد الحميد عيواج" في قصيدة له بعنوان "الهاتف النقال":

يا لهاتف نشريك جديد مشمّع	مانرضاش تكون خادم فيك اعطاب
كي حالي ضرير والقلب ملوّع	واللي لوع خاطري باهي جذّاب
محتاجك نشريك ماني نمتّع	وانكلم محبوبتي سابق لهذاب
ونقولها واش في الكبدية يوجع	عذبتيني ياخوتي والهجر عذاب
يحيا من سماك ألو وفيك أبداع	خدمك تحفة خارقة كلش حساب
صفارة إنذار في جوفك تخلع	وتفرّح من كان علموا عد لـوَاب

ج - على مستوى الأغراض:

تنوّعت الأغراض في القصيدة الشعبية بتنوع مواضيعها وأهدافها وأهمّ الأغراض التي خاض فيها شعراؤنا الجزائريون: الغزل، الوصف، الرثاء، التوسل، العتاب، كما كتب الشعراء في الشعر الديني (المدح)، وكانت لغتهم تجمع بين الدارجة (العامية)، وبين العامية التي لها أصل في اللغة العربية الفصحى، والألفاظ العربية الفصحى، وحتى استخدام الألفاظ الفرنسية في بعض الأحيان.

4- بعض أغراض وأنواع الشعر الشعبي الجزائري:

أ: الشعر الديني في الجزائر:

يُعد الشعر الديني من بين الموضوعات التي حرّكت قرائح الشعراء الشعبيين باعتباره المرآة الصافية العاكسة للعقيدة الإسلامية والمرجع الصادق لأحاديث نفوسهم، المترجم لمشاعرهم الدينية، خصوصاً أنّ هؤلاء الشعراء الشعبيين تعلّموا وتكوّنوا في الزوايا، حافظين للقرآن الكريم ومُلمّين بالسنة النبوية الشريفة، ومتشبعين بعلم اللغة العربية. ومن هذا المنطلق «شقّ الشعر الديني الجزائري طريقه وحطّ رحاله وتمكّن من قصائد الشعراء بفضل هذه الدوافع والنوازع، فانتشرت المدائح الدينية والمولوديات، والتّغني بالمناسبات الدينية المختلفة بشكل واسع»¹².

أولاً: المدح الديني (مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته).

يعد المدح أحد أغراض الشعر العربي، تمثلت فيه خصائص الشعر العربي كلّّه، وكان الشاعر الجاهلي يتكسب بشعره عن طريق المدح فيمدح الملوك والأمراء، مركزاً على صفاتهم النفسية كالشجاعة والعقل والعدل والعفة والصبر والسخاء، فأفاضوا في المدح حتى راجت تجارتها، وصار أوسع ميادين الشعر العربي.

وإذا كان المدح بشكل عام بهذا المفهوم، ينال به الشعراء الشهرة والمكانة والتكسّب، وطلب النيل والزلفى، فإنّ المدح النبوي على العكس من ذلك كونه فنّ شعري أذاعه التصوّف¹³، وفيه يركز الشاعر على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته، ويمدح الشيوخ والأولياء الصالحين. مُناخه روحي ينبع من فيض العاطفة الدينية المتأجّجة. إذن مدح الشعراء الشعبيون الرسول صلى الله عليه وسلم، وتغنوا بالمشاعر الروحية، وأبانوا عن نزعة دينية خالصة،

فشيّدت المدارس والبُنَيان، وأقيمت المواسم، وفيها يجتمع الزّهاد والنسّاك من سائر البلدان يُنشدون ما طاب من مديح خير الأنام. وهي مدائح تنم عن ثقافة صوفية، حيث لمع نجم الكثيرين من الشعراء الذين طفحت شاعريتهم بالثقافة الدينية فنذكر على سبيل المثال: "الأخضر بن خلوف"، "ابن امسايب"، "ابن التريكي"، "يوسف بن قيس الثغري"... وغيرهم هؤلاء الذين نظموا قصائد، في قوالب فنية استلهمت صوورها من السنة والقرآن والسير والفتوح... تصدر عن قلوب مفعمة بالصدق فالشاعر يتحاشى مالا يليق بشخصية النبي - صلى الله عليه وسلم- ليظهر مناقب الرسول - صلى الله عليه وسلم- وأثرها في النفوس، وإظهار حبه وشوقه، فتتهزّز قريحته لتفيض أحاسيساً، ولتجعل لسانه يفيض بمدح خير الأنام، تغنياً بجماله تارة، والصلاة عليه تارة، وإظهار الشوق إليه تارة أخرى.

يقول ابن التريكي:

أنا فنيّت من حب سيد الخلق

صاحب الحديث	قال فكلّمو وانطق
وإذا خطيبت	ربّي بيّاً يرفق
لأني لبيب	ومولع بانشادي
دمعي سكيب	والنّار في اكبادي
يا شمس المغيب	سَلَم عالهادي
صلّوا على	محمد المختار
تاج العلي	سلطان كل الاقمار
عود النّوار	يامن فاهم القوال
دون اختييار	وابن التريكي قال
في بلد الجدارة	نشري عليه إرسال

ويقوا ابن "امسايب":

طال الضر ولا طيب	نتوحش خيال الحبيب
باقي هايم وحدي غريب	ماولاً شي ليّا
من نهواها لراها مشات	بالا سبّانة
نطلب يا ربي لحنين	راني من ذا القدر مكين

وغالباً ما يتواشج غرض المديح مع قصائد صوفية أخرى وقصائد المولد النبوي التي تسمى بالمولوديات . أمّا عن نشأة الشعر الديني يقول "عبد الله الركيبي" «فقد شاعت الموشحات والأزجال الدينية منذ عصور قديمة ولا بد أنّه كان لها أثرها في الشعر الملحون أثناء حكم الأتراك للجزائر، فانتشرت القصائد من مديح وتوسّل، وتقرب إلى الله وابتهاال وذكر الأولياء ووصف الخمرة الإلاهية وما إليها»¹⁴.

ويُعد الشعراء الذين نظموا في الشعر الملحون هم أنفسهم من خاضوا في كتابه الشعر الديني الملحون الذي غالباً ما ينظم على شاكلة الموشحات والأزجال، ويصاغ قائله غالباً بطريقة فنية في آخر القصيدة، مثل "ابن امسايب"، و"المنداسي" و"الأخضر بن خلوف" هذا الأخير الذي كرّس شعره تقريبا في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم- وأشهر قصيدة مدحية اشتهر بها هي قصيدة "أحسن ما يقال عندي" يقول فيها:

أحسن ما يقال عندي	بسم الله وبيك بندا
حبك في سلطان جسدي	ما عزك يا عين وحدا
قدر النحلة التي تسدي	تبني شهدة فوق شهدا
يا محمد أنت سيدي	صلى الله عليك لبدا
اللهم صلي وسلّم	طول الذهر على نبينا
واستخلاف الحوت الأبكّم	في البحور الغامقينا
الغزل في خشبه مسدي	والمنسوج قميص واردا
الشعر سلك حديد بيدي	ما حملت بضناه دودا
يا محمد أنت سيدي	صلى الله عليك لبدا
صلى الله عليك واشنى	ألف سلام عليك ثاني
لولا أنت لا نور جنة	يشرق ولانار تُسنّي
نحتاجوك الهيه وهنا	يامن بيبك السّاس مبني
ترحم لي أبي وجدي	ووالدتي وجدّا
ارفق بروحي وجسدي	داوني نبرا من الدّا
يا محمد أنت سيدي	صلى الله عليك لبدا
داوني بدواك نبرا	من وسواس الانرا

إذا كان إبليس عبرا
أعوذ بالله نقرأ
فضل الله كتابه عندي
نهزم به القوم وحدي
يا محمد أنت سيدي
من تكبير إبليس لعور
يختلنا من الجنب الأيسر
احفظ يا مولى واستر
وبخته بقضيب عندي
اقبضت الشيطان بيدي
يا محمد أنت سيدي
يا محمد بجاه جاهك
عرفوني لما امنحتك
الأتراك اللي تزذك
رفرف فوق الداس بندي
ومفاتيح الخير رشدي
يا محمد أنت سيدي
نستهزى والموت في أثري
إذا نمت نوم قبري
هذا فاش فنيت عمري
علياً نرجى الله يقول عبدي
كيفاه نكون ونودي
يا محمد أنت سيدي
يا محمد ليك يفزع
لا غيرك مناع يمنع
لا غيرك شافع يشفع
راغب في الدنيا بوحدتي
يا قطعان يدي بيدي
يا محمد أنت سيدي
نختم قلبي بصلاتي
هو الشفيع في سماته
بجاه من رضعاته
يمنعنا من نار تقدي
يسرع بينا للخلودي
يا محمد أنت سيدي

عندي حيا ولا نراه
نختم بالقرآن فاه
يكفيني قوتي وغدا
نفسى والشيطان الأعدا
صلى الله عليك لبدا
صهدتنا يا ناس فتنا
من تمزيق الدين خفنا
والعنه سيعين لعنا
والطمته لطمه شديدا
واعطيته ميتين جلدا
صلى الله عليك لبدا
أولا أنت ما سأل فيا
يفخر بيك ولا عليا
خدمت أولادي رعيا
لبستني حلة جديدا
وأيامي فيك سعيدا
صلى الله عليك لبدا
ماذا من سيد عليا
وإذا قمت نقوم حيا
نرجوا لله يعفو
قبل ألا نلقاه عمدا
هول اليوم وهول غدا
صلى الله عليك لبدا
من لاله في الناس والي
من سطوة مولى الموالى
من هو عزة بحالي
في نفسي شفيت الأعدا
مانغلت حتى بسجدا
صلى الله عليك لبدا
على صاحب الغماما
شافعنا يوم القياما
أمه السعدية حلما
جهنم حرة شديدا
الأخضر والأمة السعيدا
صلى الله عليك لبدا

والقصيدة هي من الشعر الملحون على شاكلة الرّجل فهي مكوّنة من سبع أدوار وستة أفعال، ومطلع وخرجة، وذلك مقدار الزجيلة. مضمونها كما هو واضح قائم على المديح، فقبل أن يصل الشاعر إلى الممدوح مرّ بتسلسل مرحلي، وهي عادة سار عليها الشعراء المذاحون (إضهار الحنين، الصلاة والسلام التّعني بجمال النبي صلى الله عليه وسلم، تعداد الذنوب، التماس الشفاعة...). جاءت لغة القصيدة واضحة بسيطة ومباشرة، تعكس بساطة وثقافة الشاعر التي لم تتجاوز النصوص الدينية، وهي في مجملها عامية قريبة من الفصحى.

ب: شعر الغزل:

مما لا شك فيه أنّ هناك ثروة ضخمة من قصائد الشعر الشعبي الجزائري التي أخذ فيها غرض الغزل حظّه

الأوفر.

تحرص هذه القصائد على إبراز الجانب الروحي والوجداني، وفيها صور الشعراء المرأة التي أخذت صوراً مختلفة (الحبيبة والأم والأخت)، ولعل موضوع المرأة الحبيبة هو الموضوع الذي شغل حيّراً كبيراً حتّى أنّه يُعادل في حجمه وكثرته الموضوعات الأخرى التي قالها الشعراء كالمدح والهجاء والرثاء والوصف.

موضوع المرأة الحبيبة هو ما نقصد به الغزل أو كما يسمى بالتسبيب أو التشبيب. وفيه يبالغ الشعراء في وصف محبوباتهم والتغرّل بهنّ، وسرد قصص الحب الخالدة التي جمعتهن بهن، ويبدو أن النساء الجميلات هنّ اللواتي خلّدن

قصص الحب العذري، والتي غالباً ما تنتهي بقصص حبّ مأساوية يُكابِدُ فيها العاشق ويُعاني، وفي الأخير تُفضي علاقته بالمحبيب إلى المستحيل والتلاشي في سديم الكون.

ولعلّ أبرز قصيدة بدويّة معروفة في مختلف الوطن الجزائري، والمتداولة خاصة في منطقة الجنوب والهضاب العليا هي ملحمة "حيزية" للشاعر "محمد الصغير بن قيطون"، هي في حقيقتها تُعدّ "مرثية" وفي الوقت نفسه يلعب الغزل دوراً كبيراً فيها هذه القصيدة المطولة التي يفوق عدد أبياتها المائة «تعتمد على مقاطع رباعية أبدعها شاعر سيدي خالد (دائرة أولاد جلال ولاية بسكرة) المعروف "بمحمد بن قيطون"، وتروي القصة أنّ رجلاً اسمه "اسعيد" توفت محبوبته، بعض الروايات تذكر أنّها زوجته، وبعضها الآخر يذكر أنّه كان عاشقاً لها، أو أنّه كان قد تقدم لخطبتها وردّه وليّ أمرها خائباً، ومن شدة لوعته إثر وفاتها لجأ إلى صديقه الشاعر محمد بن قيطون ليرثيها»¹⁵

وتتأكد الأبعاد الجمالية للنص من خلال اللهجة المنتزعة من البيئة الصحراوية، وألّف على منوال القصائد العربية الكلاسيكية، كما حاول الأديب الفلسطيني "عز الدين مناصرة" أن يجتر النص القيطوني، ويتناص معه في نص آخر بعنوان "حيزية عاشقة من رذاذ الواحات" وبطلتها هي "جفرا" هذه الأخيرة التي اغتالتها نيران طائفة إسرائيلية في بيروت عام 1976، ويعيد إنتاجه مكرساً دلالاته، لكن بلغته هو، حتى أنه يتفق مع الشاعر ابن قيطون في النهاية المأساوية التي آلت إليها بطلّة النص "حيزية"، وتجذّرت القصيدة في الوجدان الشعبي العربي.

وفي قصيدة ابن قيطون، تظهر عاطفة العاشق جلية صادقة لا تصدق إلا عن عاشق متيم، حيث جسّد تمثال "حيزية" في لوحة مرسومة دقق فيها الشاعر في كل تقاسيم وتفاصيل "حيزية" وهذا التجسيد لجأ إليه جميع الشعراء العرب في القصيدة العربية القديمة ففي تاريخ الثقافة العربية ترد القصائد الغزلية في موطن الغزل العذري وهو عادة الصحراء وتطابقها "قصة حيزية" في منطقة واد السوف، فالصحراء هي موطن الغزل وملاذ قصص الحب الخالدة.

كما حافظ الشاعر "محمد الصغير بن قيطون" على المقدمات الشعرية التي عهدنا في القصائد الشعرية العربية القديمة، التي تبدأ بمقدمة طليّة يقف فيها الشاعر باكياً شاكياً من هجران الديار، ثم يلجأ إلى موضوع القصيدة ليحاكي المتغزلين العرب في العصر الجاهلي الذين فجّروا عواطفهم تحت تأثير الوله والشوق. حتى المعجم الشعري الذي استخدمه الشاعر "بن قيطون" يحاكي القدماء، من حيث اللغة والصّور، وحتى النظم الذي يميل إليه الذوق الشعري الشعبي الجزائري، حتى غدت القصيدة تنتمي إلى الشعر الغنائي فقد «تغنى ببعض أبياتها عدد من المطربين وأصبحت شخصية حيزية التي تتعرض القصيدة للحديث عنها شخصية رمزية اندرجت في تكوين كثير من قصائد الشعر المعاصر الجزائري كما انتقلت قصتها إلى حيّز الفنون السمعية البصرية والدرامية فصوّر فيلم حولها، كما عالجتها أو برات شعرية نظمها عز الدين ميهوبي ولحنها محمد بوليفة وقدمت في مناسبات مختلفة على خشبة المسرح»¹⁶، هذا وتغنى بها عدد من المطربين الجزائريين ك: عبد الحميد عباسية، خليف أحمد، البار عمر، محمد لعراف، رابح درياسة...

ومن الواضح أن القصيدة من الشعر الملحون بدليل أن الشاعر صرّح باسمه في ختام القصيدة، كما خلد تاريخ إنشادها، وهذه الخاصية الفنية يستخدمها شعراء الملحون سواء أكانوا من الحواضر أو البوادي: محافظة على أشعارهم من الانتحال والسطو عليها، وحتى تبقى أسماءهم خالدة على مرّ السنين والقرون، يقول ابن قيطون في نهاية القصيدة:

تَمَّتْ يا سامعين في الألف ومئين

كَمَلْ تسعين زيد خمسة باقيا

كلمة بن الصغير قاناها تفكير

شهر العيد الكبير فيه الغنايا

معناها أنّ الشاعر قد نظم قصيدته "حيزية" في شهر ذي الحجة (العيد الكبير) عام 1295 هـ الموافق لـ: 1878 م.

التعريف بالشاعر "محمد الصغير"¹⁷

هو بن قيطون محمد بن الصغير الأيوبي البوزيدي، من مواليد قرية سيدي خالد، إحدى واحات ولاية بسكرة بالجنوب الجزائري كان معاصراً للشيخ السماتي، والشيخ بن يوسف، وله ديوان (مخطوط) في حوزة إحدى حفيداته، وقد حاولنا استعارته منها فرفضت بحجة أنّها أقسمت بالله أن لا يخرج من دارها، فنقلنا منه مجموعة من القصائد وقد توفي في أواخر القرن التاسع عشر واشتهر بمقدرة خاصة في فن الغزل، فابن قيطون شاعر قروي فقير من عرش البوازيد ولم يمنعه هذا الأمر من أن يكون أحد فحول شعراء عصره، فكان يلجأ أحياناً للتكسب من شعره.

حيزية: هي بو عكاز حيزية بنت أحمد بن باي من عرش الذواودة «من البوازيد الذين يعود أصلهم إلى رياح إحدى قبائل بني هلال»¹⁸ الذين هاجروا من الجزيرة العربية نحو شمال إفريقيا وقد أشار الشاعر في أكثر من موضع "إلى نسب حيزية يقول:

ما نشكرش الباي جدّ يا غناي

بنت أحمد بن الباي شكري واغنايا

كما أن "أحمد بن الباي" والد حيزية رجل له مكانة شريفة وسط قبيلته يقول الشاعر:

هذا درتو مثيل عن رايسة الجيل

بنت أحمد صيل شايعة ذوايديا

كما ذكر الشاعر بطل القصة في أكثر من موضع وهو "اسعيد" ابن عم حيزية والذي ربطته قصة حب بها منذ طفولتهما، فهو يذكرنا بقصص الحب العذري (قيس وليلى) (جميل وبثينة)... وقد تشكلت صورة (حيزية) وكأنها تمثالا (الشعر الأسود، والحاجبان المقوسان والعينان كالرصاص، الخد في حمرة كالورد وكالنجم الساطع، والفم والبسمة كلمعان البرق والريق كحليب النعاج والنهدان كالتفاح والجسم كتلج أبيض سقط في ليلة مظلمة وهذا الوصف والتصوير يوازي الوصف الذي كان يتذوقه الجاهلي قديما.
يقول الشاعر:

طلقت ممشوط طاح بروايح كي فاح حاجب فوق اللّماح نونين برّيا
عينك فرد الرصاص حربي في قرطاس سوري قياس في يدين الحريبا
خذك ورد الصباح وقرنفل وضّاح الدّم عليه ساح وقت الصحويّا
الفم مثل العاج والمضحك لعّاج ريقك سي النعاج عسله الشهايا

هكذا تتأكد جمالية قصيدة حيزية من خلال خلودها، حيث أصبح اسم (حيزية) يُعبّر عن شخصيّة رمزيّة اندرجت في تكوين كثير من قصائد الشعر الجزائري المعاصر، لتعبّر عن نفسيّة الإنسان الجزائري في القرون الأخيرة من حياته.

خاتمة:

ومن هنا يمكن القول إن الشعر الشعبي جزء من التراث الشعبي، ومن الذاكرة الشعبية، استطاع أن يجلب اهتمام العامة والخاصة من الناس؛ لأنه ينبع من واقع الحياة التي يعيشها الشاعر الشعبي، وقد أطلق عليه الباحثون تسميات مختلفة باختلاف الإطلاق الذي شاع استعماله في البيئة أو حسب تسمية ذلك الباحث واختياره لذلك المصطلح، كما يتميز بالبساطة والعمق والواقعية والصدق في التعبير، وتعدد أغراضه وقد تطرقنا إلى نوعين من الأغراض وهي غرض المديح والغزل وتتميز نصوصهم بأنها حبل بالرموز والدلالات المختلفة القابلة للزيادة والنقصان تناقلتها الأجيال شفاهة عن طريق الرواية.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- البشير قذيفة، أحلى وأجمل قصائد الملحون، مخطوط شعري، 1990.
- 2- التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة التحريرية 1830، 1995، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- 3- عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، التاريخ والقضايا والتجليات، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، البليدة، 2006.
- 4- العربي دحو، الشعر الشعبي في الجزائر، النشأة، المضمون، البناء، نصوص المقاومة والثورة التحريرية نموذجاً، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط2، 2013.
- 5- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 6- زكي مبارك، المذائق النبوية في الأدب العربي، دار الشعب القاهرة، دت.

المجلات والدوريات:

- 1- على بولنوار، الشعر الشعبي الجزائري، شعراء بوسعادة أ نموذجاً، دراسة موضوعاتية فنية، مخطوط رسالة دكتوراه دولة جامعة عنابة، 2004.
- 2- عبد اللطيف حني، المذائق النبوية في الشعر الشعبي الجزائري، مجلة جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد جانفي وجوان 2012.

الهوامش والإحالات:

- ¹ العربي دحو، الشعر الشعبي في الجزائر، المنشأة، المضمون، البناء، نصوص المقاومة والثورة التحريرية نموذجاً، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط2، 2013، ص:43.
- ² عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص:265.
- ³ العربي دحو، الشعر الشعبي في الجزائر، ص: 43-44.
- ⁴ المرجع نفسه، ص:45.
- ⁵ المرجع السابق، ص:47.
- ⁶ ينظر: المرجع السابق، ص:47.
- ⁷ ينظر المرجع السابق، ص: 58.
- ⁸ عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري، ص: 368.
- ⁹ العربي دحو، الشعر الشعبي في الجزائر، ص: 67.
- ¹⁰ البشير قذيفة، أحلى وأجمل قصائد الملحن، مخطوط شعري، ص:13.
- ¹¹ على بولنوار، الشعر الشعبي الجزائري، شعراء بوسعادة أنموذجاً، دراسة موضوعاتية فنية، مخطوط رسالة دكتوراه دولة جامعة عنابة، 2004، ص:403.
- ¹² عبد اللطيف حني، المدائح النبوية في الشعر الشعبي الجزائري، مجلة جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد جانفي وجوان 2012، ص:66.
- ¹³ ينظر: زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الشعب القاهرة، دت، ص:14.
- ¹⁴ عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط1، الجزائر 1981، ص:369.
- ¹⁵ عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، التاريخ والقضايا والتجليات، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، البليدة، 2006، ص:21.
- ¹⁶ المرجع السابق، ص: 21-22.
- ¹⁷ التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة التحريرية 1830، 1995، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص:444.
- ¹⁸ عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، ص: 23.